حياة ابن خلدون

ومُثل من فلسفته الاجتماعية

محاضرة القاها الاستاذ المحقق السيد محمد الخضر
في جمعية تماون جاليات افريقية الشمالية بالقاهرة

— ٤ —

﴿ أخلاق ابن خلدون ﴾

يمكن للناظر فيما اقتبسناه من سيرة ابن خلدون أن يشهد له ببعض خصال سامية ، كعلو الهمة ورقة الحاشية وقلة المبالاة باقتحام المصاعب والاخطار . وقد وصفه لسان الدين بن الخطيب في كتاب الاحاطة ببعض أخلاق شريفة اذ قال : هو حسن الخلق جم الفضائل ظاهر الحياء وقور المجلس عالى الهمة عزوف عن الضيم صعب المقادة قوي الجأش طامح اقتن الرياسه جواد حسن العشرة عاكف على رعي خلال الاصالة . ووصفه الوزير أبو عبد الله بن زمرك في قصيدته الموماً اليها آنفا بشدة الحياء اذ قال :

يقابلني منك الصباح بوجنة حكى شفقا فيه الحياء الذي تبدي

ويحسن الخلق اذ قال :

لقيتك في غرب وأنت رئيسه وبابك للأعلام مجتمع الوفد
فآنستَ حتى ما شكوتُ بغربة ووليتَ حتى لم أجد مضض الفقد
وعدتُ لقطري شاكراً ما بلوته من الخلق المحمود والحسب العدّ

وقد أثنى عليه الاستاذ ابراهيم الباعوني الشامي وكانت بينهما مودة وصحبة ووصفه بعلو الهمة

وأومأ ابن الخطيب الى مغمز في خلقه وهو بعده عن حسن التأني وشغوفه

بثقوب الفهم وجودة الادراك ، وجعل هذا هو العلة فى تحامل رجال الدولة عليه وانطلاق ألسنتهم فى السعاية به لدى السلطان

ولمزه ابن حجر فى كتاب « رفع الاصر » بخلق الكبر ، والازدراء بمقام غيره . وذكر في شواهد هذا أن القضاة دخلوا للسلام عليه حين تولى منصب القضاء فلم يقم لأحد منهم واعتذر لمن عاتبه على ذلك . ومن تقصى أخبار النوابغ من أهل العلم والأدب وجد أكثرهم يتطوح فى الاحتفاظ بالمظهر اللائق بعظمته الى الحال الذي يمده علم الاخلاق فى قبيل الكبر والخيلاء

وقذفه ابن حجر بخلق الفظاظة وجفاء الطبع أيام كان قاضيا ، وحكى عنه أنه كان يعزر الخصوم بالصفع — ويسميه الزج — فاذا غضب على انسان قال زجوه فيصفع حتى تحمر رقبته . وتجاوز ابن حجر فى التشنيع عليه حتى رماه بارتكاب ما لا يحل لنا الأدب الجميل ايراده فى هذه المحاضرة فالى الله اياهما وعليه حسابهما ومن قرأ ما كتبه ابن حجر فى ترجمة ابن خلدون وجدها منسوجة على قصد الحط من شأنه وكتم شيء من فضله ، فلا يبعد أن يدخل فى عبارته غلو أو يتساهل فى النقل عمن كان بينه وبين المترجم له منافسة وتحاسد

﴿ مكانته فى العلم ﴾

أنبتت المعاهد العلمية الاسلامية من فحول العلماء رجالا لا تحيط بهم أقلام الحاسبين ، ولكن الرجال الذين يتسنمون في العلم الذروة القصوى وتتفجر قرائحهم بمدارك فائقة فيخرجوها للناس في أسلوبها الحكيم ليسوا بكثير ، ومن هذه الطائفة العزيزة المثال أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون

كان بعيد الشأو في العلوم الشرعية والعربية ، خبيراً بالعلوم النظرية ، ضليعاً في الفنون الادبية ، ويشهد له بالرسوخ في العلم الكتب التي درسها مثل تهذيب البرادعي في الفقه ، ومختصري ابن الحاجب الاصلي والفرعي ، وكتاب الموطأ

وصحيح مسلم وغيرها من الامهات في علم الحديث ، وكتاب التسهيل لابن مالك في النحو . وأخذ العلوم العقلية والمنطق وسائر الفنون الحكمية والتعليمية عن أبي عبدالله محمد بن ابراهيم الابلي

وحسبكم شاهداً على تقدمه في هذه العلوم النقلية والعقلية مقدمة تاريخه التي أمتع فيها البحث عن حقائق هذه العلوم وفلسفتها على طرز لا يبتكره الا من مارسها على بينة من أمرها وتوغل في احشائها

وأضاف الى ثقافة الفكر والتبريز في الفهم قوة الحفظ فكان يحفظ القرآن الكريم والمعلقات وديوان الحماسة وشعر حبيب وقطعة من شعر المتنبي وسقط الزند وطائفة من أشعار كتاب الاغاني وغير ذلك من المنظومات العلمية

قصد الشيخ ابن حجر الخطمن شانه في العلم فقال في «رفع الاصر»: وقد ذكره ابن الخطيب في تاريخ غرناطة ولم يصفه بعلم وانما ذكر له تصانيف في الأدب وشيئاً من نظمه . وقد نقل صاحب نفح الطيب ترجمة ابن الخطيب لابن خلدون في كتاب الاحاطة وهي تتضمن وصفه بالعلم حيث قال : متقدم في فنون عقلية ونقلية متعدد المزايا سديد البحث كثير الحفظ صحيح التصور

وقال ابن حجر : وقد كان شيخنا الحافظ أبو الحسن بن أبي بكر يبالغ في الغض منه فلما سألته عن سبب ذلك ذكر لي أنه بلغه أنه ذكر الحسين بن علي في تاريخه فقال : قتل بسيف جده . قال ابن حجر : ولم توجد هذه الكلمة في التاريخ الموجود الآن وكأنه ذكرها في النسخة التي رجع عنها

والعجب من الحافظ أبي الحسن حين يغض من مقام ابن خلدون لبلاغ مزور عنه ، ثم من الحافظ ابن حجر حين ينفي ذلك من تاريخه ويرجو أن يكون ذكره في النسخة التي رجع عنها . والحقيقة أن ابن خلدون أورد ذلك في الفصل الذي عقده في ولاية العهد من المقدمة عازياً له الى القاضي أبي بكر بن العربي المالكي

ومتعقباً له بالرد ونصه :

« وقد غلط القاضي أبو بكر بن العربي المالكي في هذا فقال في كتابه الذي سماه بالعواصم والقواصم ما معناه : ان الحسين قتل بشرع جده وهو غلط حمله عليه الغفلة عن اشتراط الامام العادل ، ومن أعدل من الحسين في زمانه في امامته وعدالته في قتال اهل الآراء »

ومن مثل هذا يستدل على أن بعض الطاعنين على ذوي الآراء الاصلاحية قد يؤتون من عدم اطلاعهم على نفس مقالاتهم واستيفاء النظر في مؤلفاتهم

ثم قال ابن حجر مستشهداً على ما يدعى من ضعف مكانة ابن خلدون العلمية:

« حتى ان ابن عرفة لما قدم الى الحج قال : كنا نعد خطة القضاء أعظم المناصب فلما بلغنا أن ابن خلدون ولي القضاء عدنا بالضد من ذلك »

غير بعيد صدور هذه المقالة من الشيخ ابن عرفة فان ابن خلدون لم يكن مملوء الحافظة بتفاصيل علم الفقه بحيث يكون اخصائياً في أحكام نوازله الجزئية وهذا هو المنظور اليه في أهلية القضاء لذلك العهد . أما أن يكون الرجل مكيناً في علم الاصول قائلا قواعد الفقه خبرة ذا حذق في صناعة تطبيق القواعد على ما يعرض من الوقائع ـ وهي المرتبة التي لا يقصر عنها ابن خلدون فيما نعتقد ـ فلهم أن ينفوا عنه أهلية القضاء ويطرحوه من حساب من يتقلدها بحق

ثم ان البون الشاسع الذي كان بين مسلكي الشيخ ابن عرفة وابن خلدون في العلم يقتضي أن يكون بينهما من المنافسة ما لا يمنع أحدهما من القدح في مكانة صاحبه ، وقد كان بينهما في تونس مجافاة وادعى ابن خلدون أن لابن عرفة اصبعا في السعايات التي بلوه بها لدى صاحب الدولة التونسية